تقارير

ندوة "العنف في الإسلام بين المبدأ والخيار"
هرندن، فرجينيا، مايو ١٩٩٩م

الزّبير أبو شيخي التلمساني*

ألقى الدكتور عبد الحميد أبو سليمان - رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي محاضرة تحت عنوان "العنف في الإسلام بين المبدأ والخيار"**.

استهل المحاضر كلامه بالتركيز عن أهمية الموضوع ولا سيما في المرحلة الراهنة التي تمر بها الأمة الإسلامية من صراعات سياسية وطائفية مفروضة عليها داخليًا وخارجيًا مؤكدًا على ضرورة التفريق بين العنف السياسي داخل المجتمع الواحد والعنف بين مجتمعات مختلفة، وأثناء محاولة فهم هذه النقطة السالفة ورجوعًا إلى سيرة الرسول ﷺ وجد المحاضر أنه **لا ينبغي استعمال العنف لحل المشاكل السياسية في المجتمع الواحد مهما كان الأمر.**

لقد منع رسول الله ﷺ الصحابة منعًا باتًا من استعمال أي شكل من أشكال العنف في المرحلة المكية وعيًا منه ﷺ بسلبيات العنف وما يتمخض عنه داخل المجتمع الواحد، ووعيًا منه بعدم جدوى العنف في تلك المرحلة،

---

* ماجستير في العلوم الإسلامية من الجامعة الإسلامية الماليزية، ١٩٩٥م. وماجستير في العلوم الإسلامية من جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٩م.

** المحاضرة عبارة عن مقالة نُشرت في العدد الخامس عشر من مجلة "**إسلامية المعرفة**" في شتاء ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

وكان ممكنـًا لبعض الصحابة أمثال حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما الرّد على المشركين المؤذين لرسول الله ﷺ ودعوته وأصحابه.

أما في المرحلة المدنية، فقد استعمل رسول الله ﷺ كل أشكال وأنواع العنف بما فيها الاغتيالات السياسية مثل ما حدث لكعب الأحبار أحد زعماء اليهود في المدينة المنورة.

علاوةً على هذا، قام رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول لدخوله المدينة واستقراره فيها بإرسال الرسل والرسائل إلى ملوك زمانه يدعوهم إلى الدخول في الإسلام.

وساق المحاضر أيضـًا أمثلة شتّى لتأييد فكرته السابقة بعدم استعمال العنف داخل المجتمع الواحد وهو كما سمّاه "الرَّحِم". ومن بين هذه الأمثلة ما حدث للنصارى الأوائل رغم اضطهاد الروم لهم فقد صبروا وصابروا ورابطوا، وسقطت الإمبراطورية الرومانية وها هي ذي إلى الآن ما زالت النصرانية مستمرة.

إنّ الثورة الإسلامية في إيران قد نجحت وآتت أُكلها نظرًا لعدم استعمال العنف كوسيلة لتغيير نظام الشاه داخل المجتمع الإيراني آنذاك رغم قسوة النظام الإيراني على شعبه وقياداته الثورية.

واستدرك د. عبد الحميد منبهـًا إلى أن استعمال الطريقة نفسها المسالمة من طرف الإيرانيين مع النظام العراقي في أثناء الحرب العراقية الإيرانية لم يؤت ثماره لأن المعادلة تغيرت، فلم يعد الصراع داخل المجتمع الواحد، بل تحول إلى صراع بين مجتمعين مختلفين ومتغايرين.

عرّج المحاضر بعد ذلك إلى مثال حيّ ألا وهو الصراع السياسي في الجزائر، ففي عام ١٩٨٨م (أحداث الخامس من أكتوبر) استعمل الجيش الجزائري العنف والقوة لقمع المتظاهرين، المطالبين بضرورة التغيير السياسي وإعطاء الحريات للشعب الجزائري فقد تزلزلت أقدام النظام الجزائري لأن المعارضة لم تستعمل العنف كوسيلة للتغيير، إلاّ أنه بعد الاعتقالات التي قام بها النظام الجزائري في صفوف من اختارهم الشعب ممثلين له وكذلك القمع بعد

انتخابات ١٩٩١م التي فازت بها الجبهة الإسلامية للإنقاذ، عهد بعض الإسلاميين إلى استعمال القوة والعنف كوسيلة لتغيير النظام الذي سلبهم حقوقهم المشروعة. هذا الأمر جرّ ولا يزال يجر الويلات والآلام على الشعب الجزائري المجاهد، وحارت الأمة في هذا الموضوع.

عضَّد المحاضر كلامه بمثال آخر هو قيام الجماعات الإسلامية في مصر بضرب مصالح البريطانيين في قناة السويس رغم أن الحكومة كانت مصرية أثناء الانتداب البريطاني لمصر مما جعل جميع فئات الشعب المصري في تلتفّ حول الإسلاميين آنذاك وتساندهم.

من خلال استقراء هذه الأمثلة ومن غيرها، وصل المحاضر إلى قناعة وهي **أن عدم استعمال العنف داخل المجتمع الواحد في الإسلام قضية مبدأ وليست قضية خيار، فهي قضية إلزامية.** ودعا المحاضر إلى ضرورة تطبيق الشورى كحل أوحد لا ثاني له لكل الخلافات والصراعات السياسية داخل الأمة الإسلامية.

وختم المحاضر ملاحظاته بضرورة سبق الالتزام باللاعنف أولاً ثم تأتي الشورى ثانياً، فبدون هذه الخطوة لا يمكن حلّ المشاكل السياسية داخل الأمة الإسلامية.

المداخلات:

تجدر الإشارة إلى أن المداخلات كانت ثرية بالآراء والأسئلة والانتقادات، مما يدل على أن المحاضرة حملت في طيّاتها أفكاراً غنيّة وأثارت تفكيرًا جيدًا لدى الحضور.

المداخلة الأولى:

طُرِحَتْ في هذه المداخلة أسئلة منها: ما تعريف الأمة؟ وهل يمكن تحديدها جغرافياً وسكنياً؟ وهل أن مفهوم الأمة قد تغيّر منذ عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين إلى زماننا هذا؟ كما اعتُرِضَ في هذه المداخلة على تحليل

المحاضر لمثال العنف في الجزائر، حيث اعتبرته الأخت المدَاخِلَة حقـًا مشروعـًا للدفاع عن اختيارات الشعب الجزائري المسلم.

المداخلة الثانية:

علّق الأخ المداخل على قضية منهجية كان قد أشار إليها المحـاضر وهـي ضرورة التزام المنهج الشمولي في فهم النصوص، قائلاً: إن هذا الأمر غير كاف، موجهـًا نقده إلى أن موضوع العنف بين المسلمين غاب في المقالة والمحـاضرة معـًا. وأضافت المدَاخَلَة قضية أن المسلمين مأمورون بتقوية أنفسهم مما لا يعني بالضرورة استعمال تلك القوة والتي هي في بعض الأحيان ضروريـة لتطبيـق اتفاق أو عقد سياسي داخل المجتمع.

هذا وقد أشارت هذه المداخلة إلى أن الإسلام ينظم استعمال القوة سواء في الحرب مع الأعداء خارج الأمة أو داخل المجتمع الواحد أو حتى علـى صعيـد أصغر ضد الشعب أو الرعية.

المداخلة الثالثة:

انتقد صاحب هذه المداخلة بعض الأفكار والتعليقات الواردة في المحـاضرة وشرع في مداخلته بطرح السؤال التالي: هل كتب المحاضر مقالته هذه بوصفـه رجل سياسة (Politician) أو باعتباره عـالم سياسـة (Political Scientist) أو بوصفه مفسّرًا ومؤرخـًا؟

ثم أجاب بنفسه على تساؤله قائلاً: إذا كان الكاتب (المحاضر) قد كتـب هذه المقالة (المحاضرة) بوصفه, رجل سياسة (Politician)، فأنا أوافقـه علـى الكثير من أفكاره لأنه عندما يتحدث كرجل سياسة لابـد مـن اسـتعمال الدبلوماسية، ولكن عندما يكتب الكاتب بوصفه عالم سياسة Political Scientist أو بوصفه مؤرخـًا ومفسرًا يتعامل مع الآيات والأحاديث، فـأعتقد أنه لابد أن يكون أكثر دقة وعمقـًا.

فمصطلح العنف مثلاً مصطلح غريب عن القرآن وعن اللغة العربية، إذ توجد مصطلحات أخرى أكثر دقة وأحسن تعبيرًا عن المفهوم مثل البغي أو الاستبداد.

وأَصَلَ المتدخل حديثه بالإشارة إلى أن النبي ﷺ شرع في التحضير لغزوة بدر وهو في مكة، مستدلاً على أن ذهابه إلى الطائف لم يكن ذهابًا بريئًا وعفويًا، بل كان استراتيجية لمحاولة كسب أهل الطائف الذين تربطهم علاقات اقتصادية مهمة مع قريش، فلو قُدّرَ له النجاح في الطائف لما هاجر إلى يثرب - كما قال المتدخل. بالإضافة إلى هذا، تمت الإشارة إلى بيعة العقبة الثانية في مكة على أن ينصر أهل يثرب رسول الله ﷺ ويدافعوا عنه بأموالهم وأرواحهم، وهذا دليل على استعداد الرسول ﷺ لاستعمال القوة وهو في مكة.

جاء انتقاد آخر للمحاضر بسبب اختياره وانتقائه لبعض أحاديث الفتنة، وكان من الممكن والأليق الابتداء من القرآن قبل كل شيء في هذا الموضوع. ثم إن أحاديث الفتنة غير واضحة لأنه لا توجد فتنة واحدة، بل هناك مراتب للفتن، فهناك أحاديث فيها منع بات لاستعمال القوة، وهناك أحاديث أخرى تحث على استعمال القوة داخل المجتمع الواحد، فَلِمَ هذا الانتقاء إذن؟

المداخلة الرابعة:

افترض المتدخل ألاّ يكون هذا المقال قد نشر في مجلة "**إسلامية المعرفة**" لأنها مجلة فكرية تخاطب شريحة معينة من الأمة، ولا تخاطب كل الأمة، وكان الأولى أن تنشر في مجلة واسعة الانتشار، وأن هذا الموضوع بحاجة إلى كتاب ومشروع بحث. تساءل المتدخل أيضًا عن مشروعية استعمال العنف في المجتمع الواحد مؤكدًا عدم وجود أي مشروعية لذلك مهما كانت الظروف، موافقًا بذلك المحاضر.

المداخلة الخامسة:

بدأت المداخلة بالإشارة إلى أن الدستور الأمريكي يعطي للشعب الشرعية في تأسيس مليشيات في حالة ما إذا صارت الدولة (الحكومة) غير شرعية، بعد

ذلك أشار المتدخل إلى أن مفهوم العنف في المحاضرة غير محدد، فهل هو عنف بين جماعات داخل المجتمع الواحد أم هو عنف بين المجتمع والدولة كحالة الجزائر مثلاً؟

وإذا كان هناك مبدأ في القرآن أنه لا يجوز لمسلم أن يقتل مسلماً مهما كانت الظروف، فما الداعي إذن لمثل هذه المدارسات والمناقشات العميقة!

ويرى صاحب هذه المداخلة أنه إذا صارت الحكومة غير شرعية فلابد للمجتمع أن يثور ضدها. واليوم، لا يمكن أن نفرق بين العنف داخل المجتمع الواحد والعنف بين مجتمعات مختلفة مثل ما يحدث من صراعات وعنف بين الهند وباكستان اليوم، فالدولتان لا تتبادلان إثارة القلاقل والمشاكل والأزمات.

وهناك أمثلة ناجحة عن العنف داخل المجتمع الواحد كتلك التي أطاحت بالحاكم الصيني شن كي شك من السلطة؛ كما أن ابن خلدون من الذين قللوا بإمكانية استعمال العنف من طرف الدولة ضد فئات من الرعية (وكان يقصد الخوارج) دون الحديث عن شرعية الدولة.

المداخلة السادسة:

تركزت هذه المداخلة على حديثين من أحاديث الرسول ﷺ وهما: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". وحديث: "لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا". فأين موقع مثل هذه الأحاديث في هذا الموضوع؟ وأشارت المداخلة إلى أن الإباضية يقومون بدفع الظلم إذا ظهر في المجتمع بدءا بأربعين رجلاً يشرون أنفسهم لله تعالى حتى ينتهي الظلم عن طريق استعمال العنف.

تم تساءل المتدخل: ما الذي جلب الاستقلال إلى أغلب بلدان العالم الإسلامي إن لم يكن استعمال العنف داخل المجتمع الواحد؟ فها هي ذي الجزائر قد ضحت بمليون ونصف المليون شهيد، وها هي ذي ليبيا قد ضحت بثلث سكانها.

أما عن موضوع المجتمع بكونه رَحِمًا واحدًا، فحافظ الأسد رَحِمٌ مع أهله، لكن لم يشفع له ذلك في قتل الآلاف من المسلمين في حماة.

وتساءل المتدخل مرّة ثانية قائلاً: كيف يمكن تغيير النظام عندما يكون ظالماً وغير شرعي؟

إن مفهوم الجهاد هو دفع للظلم، فحيثما وجد الظلم لابد أن يتواجد الجهاد.

المداخلة السابعة:

اعترض صاحب هذه المداخلة على انتقاء الكاتب (المحاضر) لبعض الآيات والأحاديث ووضعها تحت عنوان صراع الحضارات، حيث يرى أن الآيات والأحاديث المختارة التي ساقها الكاتب في مقالته ومحاضرته تتعلق بصراع الأديان وليس بصراع الحضارات مستدلاً على رأيه بأن الحضارة الإسلامية مثلاً كانت نتاج الدين الإسلامي بالأساس لكن أديانـاً أخرى كالمسيحية واليهودية ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية.

وعلى هذا الأساس، لا يمكننا استعمال الآيات والأحاديث المنتقاة في المحاضرة في الحديث عن صراع الحضارات والعلاقات فيما بينها.

المداخلة الأخيرة:

وَرَدَتْ هذه المداخلة في ثلاث نقاط:

١ - أثبت التاريخ وعلم النفس وجود بعض الخصائص الحيوانية في البشر، ومنها العنف. وجاءت الأديان لضبط العنف في الإنسان، ولهذا، فنحن كما قال المتدخل بصدد الحديث عن موضوع ضبط العنف ولسنا بصدد الحديث عن موضوع تصنيف العنف.

٢ - أسس النبي ﷺ في المدينة مجتمعـاً ذا سيادة معروفة بأمرين اثنين:

أ - الحدود الجغرافية للمدينة المنورة

ب - العهد بين المهاجرين والأنصار

٣ - من الخطأ الحديث عن موضوع العنف انطلاقـاً من واقعنا المعيش لأن ذلك سيجرنا إلى مشكلة كيفية استعمال النص (من القرآن أو السنة) لتأييد رأي وموقف معين ودحض رأي وموقف المخالفين.

لذا لابد من تأسيس المبدأ ثم الانطلاق إلى الواقع المعيش ومحاولة فهمه والتعامل معه انطلاقاً من المبدأ، وإلا سنقع فيما وقعت فيه الفرق الإسلامية من استعمال النص (من القرآن أو السنة) وفق هواها تأييدًا لمواقفها وبرهانًا على صحة معتقداتها وأفكارها.

وفي الختام، ركز الأخ المتدخل على ضرورة الانتباه إلى أن واقعنا المتخلف لابد أن لا يدفع بنا إلى إعطاء الشرعية لاستخدام العنف فقط لأننا تحت حاكم مستبد أو تحت حكّام باعوا ذمتهم لجهات خارجية.

بعد الانتهاء من المداخلات والأسئلة والتعليقات، ردّ د. عبد الحميد أبو سليمان على بعض الأسئلة، ووضح بعض الأفكار مؤكدًا ما كتبه في المقالة وما ألقاه في المحاضرة أن الدرس الأساسي الذي نستلهمه مما سبق هو أنه **لا يصح استخدام العنف داخل كيان المجتمع الواحد مهما كانت الأحوال بغية تحقيق أهداف سياسية، وأن الإصلاح في هذه الحالة لا يتم السعي إليه إلاّ بالأساليب السياسية المدنية، وإن صبر الفئات المظلومة مجلبة لتضامن الأمة ضد المعتدي الباغي.**